


مجلة

# كلية الدراسات الإسلامية والعربية

إسلامية فكرية ثقافية محكمة

العدد
الثالث
١٤١١ هـ
١٩٩١ هـ

# المحتويات

مسألة

# إنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ

## عند ابن مالك وابن هشام

تحقيق: ماجد حسن الذهبي

مدير المكتبة الظاهرية في دمشق

حظي تذكير لفظة «قريب» في قوله تعالى: «إنّ رحمة اللّه قريبٌ من المحسنين»، باهتمام المفسّرين والنحاة مثلما حظيت بذلك الاهتمام ألفاظ قرآنية أخرى.

وكان ممن تناول هذه المسألة من النحاة عالمان عَلَمان مختلفان عصراً ومصراً، هما ابن مالك وابن هشام فابن مالك أبدى في المسألة ستة أقوال، وأما ابن هشام فقد عرض لثلاثة عشر(١) وجهاً قالها العلماء في هذه المسألة، فناقش كل وجه مبدياً قوته وضعفه متتبعاً له بالتصحيح أو الإبطال.

وهذا كله سيتضح من المخطوطتين اللتين كانت تحتضنهما دار الكتب الظاهرية مع غيرهما من نفائس المخطوطات(٢).

---

(١) اتضح لنا بعد الاستقصاء أن ابن هشام لم يعرض إلا ثلاثة عشر وجهاً فقط، في حين أن نسخة مخطوطتنا هذه، و(الأشباه والنظائر) بنسخها الست التي اعتمدها المحققون الأربعة قد ذكرت في المقدمة عبارة ابن هشام: (فوقفت منها على أربعة عشر وجهاً) مع أنه لم يتناول فيها كتب إلا ثلاثة عشر وجهاً فقط، وكانت أرقامها في (الأشباه والنظائر) متسلسلة من ١ ـ ١٣، وليس كما في مخطوطتنا هذه التي قفز ناسخها من الوجه الثالث إلى الوجه الخامس واهماً وموهماً بسقوط وجه. يضاف إلى هذا أن تسلسل الوجوه في( الأشباه والنظائر) مطابق لتسلسلها في مخطوطتنا هذه مطابقة تامة.

(٢) بعد أن قامت مكتبة الأسد الوطنية بدمشق عام ١٩٨٤م تم جمع المخطوطات كافة من المكتبات العامة في سورية، والظاهرية في مقدمتها لوفرة ونفاسة ما فيها. وحفاظاً على اسم الظاهرية، وتسهيلاً لمهمة الباحثين في جميع البقاع وضعت مخطوطات الظاهرية في جناح خاص يحمل اسمها، واحتفظت المخطوطات بتصنيفها وأرقامها السابقة المذكورة في فهارسها المرتبة حسب الموضوعات، والمتوافرة في مكتبات العالم.

## ابن مالك(١)

## ٦٠٠ ـ ٦٧٢ هـ = ١٢٠٣ ـ ١٢٧٤م

**نسبه ونشأته:**

جمال الدين محمد بن عبدالله، ابن مالك، الطائي الجيّاني، المالكي حين كان بالمغرب، الشافعي حين انتقل إلى المشرق، ونزل دمشق.

ولد سنة ستمائة أو التي بعدها في مدينة جيّان بالأندلس، وسمع بدمشق من مكرم، وأبي صادق الحسن بن صبّاح، وأبي الحسن السخاوي وغيرهم. وأخذ العربية عن غير واحد، وقرأ كتاب سيبويه على أبي عبدالله، ابن مالك المرشاني، وجالس يعيش وتلميذه ابن عمرون وغيره بحلب، وتصدر بها لإقراء العربية، وصرف همته إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية، وأربى على المتقدمين. وكان إماماً في القراءات وعالماً بها، وأما اللغة فكان إليه المنتهى فيها. وكان إذا صلىّ في العادلية(٢) ـ لأنه كان إمام المدرسة ـ يشيّعه قاضي القضاة ابن خلكان إلى بيته تعظيماً له. وأما النحو والتصريف فكان فيهما ابن مالك بحراً لا يشقّ لجّه. وأما اطلاعه على أشعار العرب التي يستشهد بها على النحو واللغة فكان أمراً عجيباً، وكان الأئمة الأعلام يتحيرون في أمره. وأما الاطلاع على الحديث فكان فيه آية لأنه كان أكثر ما يستشهد بالقرآن، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث، وإن لم يكن فيه شيء عدل إلى أشعار العرب. هذا إلى ما هو عليه من الدين والعبادة وصدق اللهجة، وكثرة النوافل، وحسن السمت وكمال

---

(١) أخذنا الكثير مما كتبنا من نفح الطيب، وأوجزنا في الترجمة لشهرة المؤلف، وللمزيد يرجع إلى: الوافي بالوفيات ٣/ ٣٥٩، فوات الوفيات ٢/ ٢٢٧، طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٢٨، بغية الوعاة ٥٣، نفح الطيب ٢/ ٤٢٥ ـ ٤٣٧، خزائن الكتب ٦٤، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، لابن مالك، تحقيق محمد كامل بركات.

(٢) هي المدرسة العادلية التي بناها الملك العادل في دمشق عام ٦١٩م شمال غرب المسجد الأموي، وصارت فيما بعد مقراً لقاضي القضاة ثم مقراً للمجمع العلمي العربي بدمشق، ثم ألحق مؤخرا بدار الكتب الظاهرية المقابلة لها.

العقل. وأقام بدمشق مدة يصنف ويشتغل بالجامع[1] وبالتربة العادلية، وتخرج به جماعة. وكان نظم الشعر عليه سهلاً رجزه وطويله بسيطه.

**مؤلفاته:**

لابن مالك مؤلفات كثيرة، منها: الموصل في نظم المفصل، وسبل المنظوم وفك المختوم، الكافية الشافية، وقد اختصرها بما سماه (الخلاصة) وهي التي عرفت بالألفية، ويقول في أولها:

وأستعين الله في ألفيّه　　　مقاصد النحو بها محوية

وفي آخرها:

حوى من الكافية الخلاصة　　　كما اقتضى رضاً بلا خصاصه

من كتبه أيضاً تسهيل الفوائد، لامية الأفعال، شواهد التوضيح، إكمال الإعلام بمثلث الكلام، تحفة المودود في المقصور والممدود، الضرب[2] في معرفة لسان العرب. ومعظم مخطوطات هذه الكتب في دار الكتب الظاهرية.

**وفاته:**

توفي ـ رحمه الله ـ في دمشق سنة ٦٧٢ هـ ودفن بسفح جبل قاسيون.

**وصف المخطوطة:**

هي رسالة في مجموع يضم عشر رسائل لابن مالك، ورقمه ١٥٩٣، ومؤلف من ١٧٩ ورقة، وهو من وقف المدرسة العمرية، والمجموع أحد مخطوطات دار الكتب الظاهرية، ورسائل المجموع هي:

١ ـ قصيدة في شرح أبنية الأفعال.

٢ ـ إكمال الإعلام بمثلث الكلام.

٣ ـ أبنية الأسماء الموجودة في المفصّل.

---

(١) هو المسجد الأموي بدمشق الذي بناه الوليد بن عبدالملك عام ٨٦ هـ.

(٢) الضرب: العسل الأبيض الفليظ. وقيل: عسل البر (اللسان: ضرب).

٤ ـ الاعتقاد في الفرق بين الظاء والضاد.

٥ ـ أرجوزة فيما يقال بالضاد فيدل على معنى، وبالطاء فيدل على معنى غيره.

٦ ـ ألفاظ متفقة المبنى مختلفة المعنى.

٧ ـ رسالة في الاشتقاق، وفيها مسألة «إن رحمة الله قريب من المحسنين».

٨ ـ قصيدة في ضوابط لغوية.

٩ ـ مثلثات قطرب.

١٠ ـ ما ثلت لفظه واتحد معناه (منظومة أهداها للملك الناصر صلاح الدين).

طول ورقة المخطوطة ١٩ س م، وعرضها ١٣ س م، وعرض الهامش الأيمن ٣ س م، والأيسر ١ س م، وفي كل صفحة ١٧ سطراً. وكتب الرسالة بخط نسخ عادي مقروء، وبالنقش الأسود فقط، ولم يذكر اسم الناسخ وتاريخ النسخ. وقد تأثر أعلى المخطوطة بالرطوبة فتأثرت بعض الكلمات وغمضت. وتقع الرسالة بين الورقة ٧٧ ب ـ ٨٠ أ.

❁ ❁ ❁

[٧٧ ب]

بسم الله الرحمن الرحيم

عفوك اللهم

مسألة من إملاء الشيخ الإمام العالم جمال الدين أبي عبدالله محمد ابن مالك، رحمه الله تعالى، قوله تعالى: «إن رحمة الله قريب من المحسنين»(١).

فعيل وفعول مشتبهان في الوزن والدلالة على المبالغة والوقوع بمعنى فاعل، وبمعنى مفعول، إلا أن فعيلاً أخف من فعول، فلذلك فاقه بأشياء، منها كثرة الاستغناء به عن فاعل في المضاعف كجليل وخفيف، وصحيح وعزيز وذليل. وإنما حق هذه الصفات أن تكون على زنة فاعل لأنها من فعل يفعل فاستغنى فيها بفعيل، ولاحظ لفعول في ذلك. ومنها اطراد بنائه من فعل كشريف وظريف، وكريم وعظيم، وجميل ونبيل، وليس لفعول فعل يطرد بناؤه منه، ومنها كثرة مجيئه في أسماء الله تعالى كسميع وبصير ونصير، وقدير، وخبير، وعليم، وحكيم، وعزيز، وحكيم، ونجيد، وحميد، وعظيم، وعليّ، وغنيّ، وقويّ، وشهيد، وحفيظ، وحسيب، ورقيب، ولم يجيء فيها فعول إلا رؤوف، وودود، وعفوّ، وغفور، وشكور. وإذا ثبت أنه فائق لفعول في الاستعمال، ولا يليق أن يكون له تبعاً بل الأولى أن يكون الأمر بالعكس أو ينفرد كل منهما بحكم هو به أولى، وهكذا هو الواقع، فإنهم خصّوا فعولاً المفهم معنى فاعل بأن لا تلحقه التاء الفارقة بين المذكر والمؤنث، وأن يشتركا فيه، فيقال رجل صبور، وشكور، وامرأة صبور وشكور، وكذلك ما أشبههما إلا ما شذ من عدو وعدوة. فإن قصد بالتاء المبالغة لحقت المذكر والمؤنث، فقيل رجل ملولة وفروقة، وامرأة ملولة وفروقة، ولا يقدم على هذا النوع إلا بنقل، فإن لم يقصد بهذا الوزن معنى فاعل لحقته أيضاً

(١) اللسان (رغث) شاة رغوث ورغوثة: مرضع، وهي من الضأن خاصة، واستعملها بعضهم في الإبل.

كحلوبة وركوبة ورغوثة(١)، وليس في شيء من هذا إلا النقل. فلما كان لفعيل على فعول من المزيّة ما ذكرته استحق أن يختص بأحوط الاستعمالين وهو التمييز بين المذكر والمؤنث كجميل وجميلة، وصبيح وصبيحة، ووضيء ووضيئة، ومليح ومليحة، وشريف وشريفة. فإن كان فعيل بمعنى مفعول وصحب الموصوف استوى فيه المذكر والمؤنث كرجل قتيل وامرأة قتيل، فإن لم يصحب الموصوف وقصد تأنيثه أنث نحو رأيت قتيلة(٢) بني فلان، هذا هو المعروف، وما ورد خلاف ذلك عدّ نادراً وتلطف في توجيهه بما يلحقه بالنظائر ويبعده عن الشذوذ [٧٨ب]، فمن ذلك قوله تعالى: «إن رحمة الله قريب من المحسنين». وفي ستة أقوال:

أحدها: أن فعيلا فيه وإن كان بمعنى فاعل قد جرى مجرى فعيل الذي بمعنى مفعول في عدم لحاق التاء كما جرى هو مجراه في لحاق التاء حين قالوا: خصلة حميدة، وفعلة ذميمة بمعنى محمودة ومذمومة فحملا على جميلة وقبيحة في لحاق التاء، ونظير «إن رحمة الله قريب من المحسنين» قوله تعالى: «قال من يحيي العظام وهي رميم»(٣).

الثاني: أنه من باب تأوّل المؤنث بمذكر موافق في المعنى كقول الشاعر:

أرى رجلاً منهم أسيفاً كأنما يضم إلى كشحيه كفا مخضبا(٣)

فتأول كفا وهو مؤنث بعضو مذكر صفته كذلك، فكذلك تتأول الرحمة بالإحسان، فيذكر خبرها، وتأول الرحمة بالاحسان أولى من تأول الكف بعضو لوجهين، أحدهما أن الرحمة معنى قائم بالراحم، والإحسان بر الراحم بالمرحوم، ومعنى القرب في البر أظهر منه في

---

(١) في إصلاح المنطق ٣٤٣: وامرأة لعين وجريح وقتيل، فإن لم تذكر المرأة قلت: هذه قتيلة بني فلان، وكذلك مررت بقتيلة. وفي اللسان (قتل) أورد اللحياني أن الكسائي قال: يجوز في هذا (أي في قولك هذه قتيلة بني فلان) طرح الهاء، وفي الأول (أي قولك امرأة قتيل) إدخال الهاء، يعني أن تقول هذه امرأة ونسوة قتلى.

(٢) يس ٣٦ الآية ٧٨.

(٣) البيت للأعشى في ديوانه ٨٩.

الرحمة، الثاني أن ملاحظة الإحسان في الرحمة الموصوفة بالقرب من المحسنين مقابلة للإحسان الذي تضمنه ذكر المحسنين، فاعتبارها يزيد المعنى قوة، واللفظ جزالة فصحت [١٧٩أ] الأولوية. ومن تأول المؤنث بمذكر ما أنشد الفراء من قول الشاعر:

وقائع في مضر تسعة ... وفي وائل كانت العاشرة(١)

فتأول الوقائع بأيام الحروب: فذكر(٢) العدد الجاري عليها فقال تسعة، فلولا ذلك لقال تسع لأن الوقائع مؤنثة، وإذا جاز تأول المذكر بمؤنث في قول من قال جاءته كتابي أي صحيفتي. وفي قول الشاعر:

يا أيها الراكب المزجي مطيته ... سائل بني أسد ما هذه الصوت(٣)

أي الصيحة، مع أنه حمل أصل على فرع، فلأن يجوز تأول مؤنث مذكر لكونه حمل فرع على أصل أحق وأولى(٤).

الثالث: من توجيهات الآية الكريمة أن يكون من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه مع الالتفات إلى المحذوف فكأنه قال: إن مكان رحمة الله قريب من المحسنين، ثم حذف المكان، وأعطى الرحمة إعرابه وتذكيره كما قال الشاعر:

---

(١) البيت في اللسان (يوم) دون عزو. وقال ابن السكيت: العرب تقول الأيام في معنى الوقائع، فقال تسعة لأنه ذهب إلى الأيام.

(٢) لعل الأولى أن يقول: فأنّث العدد، ولعلها من الناسخ.

(٣) في اللسان (صوت) البيت لرويشد بن كثير الطائي، وأنثه لأنه أراد به الضوضاء والجلبة على معنى الصيحة أو الاستغاثة. وقال ابن سيده: وهذا من قبيح الضرورة، أعني تذكير المؤنث لأنه خروج عن أصل إلى فرع، وإنما المستجاز من ذلك رد التأنيث إلى التذكير لأن التذكير هو الأصل. ووردت الشطرة الثانية فقط في الضرائر ١٢٨ مع القول إن ابن جني في سر الصناعة قال عندما أنشد قول الشاعر هذا: إنما أنثه لأنه أراد الاستغاثة، وهذا من قبيح الضرورة، أعني تأنيث المذكر لأن التذكير هو الأصل بدلالة أن الشيء مذكر، وهو يقع على المذكر والمؤنث.

(٤) في الخصائص ٤١٥: وتذكير المؤنث واسع جدا لأنه رد فرع إلى أصل، لكن تأنيث المذكر أذهب في التناكر والإغراب وسنذكره، وأردف: وأما تأنيث المذكر فكقراءة «تلتقطه بعض السيارة»، وكقولهم: ما جاءت حاجتك. وكقولهم ذهبت بعض أصابعه، أنّث ذلك لما كان بعض السيارة سيارة في المعنى، وبعض الأصابع إصبعاً، ولما كانت (ما) هي الحاجة في المعنى، وأنشد البيت: يا أيها... وقال: ذهب إلى تأنيث الاستغاثة.

يسقـون من ورد البريص عليهم          بردى يصفق بالرحيق السلسل(١)

فقال يصفق بالتذكير، وبردى مؤنثة(٢) لأنه أراد ماء بردى، ومثل هـذا قـول النبي صلى اللـه عليـه وسلم مشيراً إلى الـذهب والحـريـر: «هذان حرام على ذكور أمتي»(٣) فقال حرام بالإفراد، والمخبر عنـه في اللفظ اثنان لأنه أراد استعمال هذين حرام.

[٧٩ب] الرابع: من توجيهات تذكير خبر الرحمة أن يكون من باب حذف الموصوف، وإقامة الصفة مقامه، كأنه قـال إن رحمـة اللـه شيء قـريب من المحسنين، أو لطف أو بـر أو إحسـان أو نحـو ذلـك، والحذف للموصوف، وإقامة صفته مقامه سائغ. ومنه قول الشاعر:

قـامـت تـبـكـيـه عـلى قـبره          من لي من بعـدك يا عـامـر(٤)

تـركتني في الـدار ذا غـربـة          قـد خـاب من ليس لـه نـاصر

أراد تركتني شخصا أو إنسـانـا ذا غـربـة، ولـولا ذلك لقـال ذات غربة، ومثله قول الآخر:

---

(١) البيت لحسان بن ثابت في ديوانه ١٢٢، وأما في الخزانة ٢/ ٢٤١، ومنتخبات في أخبار اليمن ٦ فهي (كأساً يصفق)، وفي طبقات فحول الشعراء ٢١٨ (خمرا يصفق).

(٢) في شرح ابن عقيل ٤/ ٩٥ في باب التأنيث: فأما المقصود (أي ألف التأنيث) فلها أوزان مشهورة، وأوزان نادرة، فمن المشهورة. . . . . ومنها فعلى اسماً كبردى لنهر بدمشق.

(٣) صيغة الحديث في سنن أبي داوود ٤/ ٣٣٠ برقم ٤٠٥٧، وفي سنن النسائي ٨/ ١٦٠ «إن هذين حرام على ذكور أمتي»، وفي سنن الترمذي ٦/ ٤٣ برقم ١٧٢٠/ «حُرِّمَ لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأحل لإناثهم». وفي سنن ابن ماجه ٢/ ١١٨٩ ورقم ٣٥٩٢ «إن هذين حرام على ذكور أمتي حلّ لإناثهم».

(٤) البيتان في سمط اللآلي ١/ ١٧٤، ومجاز القرآن ٢/ ٧٦، وأمالي المرتضى ١/ ٧١، والبلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث ٦٥، واللسان (عمر) وقد سبقهما عبارة: وقفت أعرابية على قبر ابنها.

وورد البيت الأول فقط منسوباً لأعرابية في العقد الفريد ٣/ ٢٥٩ على النحو التالي:

أقـمـت أبـكـيـه عـلى قـبـره          في الـدار لي وحشـة يـا عـامـر

ونسبه المحكم في ٢/ ١٠٩ للأعشى، وليس في ديوانه.

فلو أنك في يوم الرخاء سألتني      فراقك لم أبخل وأنت صديق[1]

أراد وأنت شخص أو إنسان. وعلى مثل هذا حمل سيبويه قولهم للمرأة حائض وطامث فقال: كأنهم قالوا شيء حائض، وشيء طامث.

الخامس: من التوجيهات أن يكون من باب اكتساء المضاف حكم المضاف إليه إذا كان صالحاً للحذف، والاستغناء عنه بالثاني والمشهور في هذا تأنيث المذكر لإضافته إلى مؤنث على الوجه المذكور[2] كقول الشاعر:

مشين كما اهتزت رماح تسفهت      أعاليها مَرُّ الرياح النواسم[3]

فقال تسفهت، والفاعل مذكر لأنه اكتسى تأنيثا من الرمال إذ[١٨٠أ] الاستغناء بها عنه جائز، ومثله قول الآخر:

بغي النفوس معيدة نعماءها      نقماً وإن عمهت وطال غرورها[4]

فأنّث خبر البغي لإضافته إلى النفوس مع الصلاحية للاستغناء بها عنه، وإذا كانت الإضافة على الوجه المذكور تعطي المضاف تأنيثاً لم يكن له، فلأن تعطيه تذكيراً لم يكن له كما في الآية الكريمة أحق وأولى لأن التذكير أولى، والرجوع إليه أسهل من الخروج عنه.

السادس: من التوجيهات أن يكون من الاستغناء بأحد المذكورين لكون الآخر تبعاً لع ومعنى من معانيه، ومنه في أحد الوجوه قوله

---

(١) البيت دون عزو في شرح شواهد المغني ١٠٥، وشرح ابن عقيل ١/ ٣٨٤ برقم ١٠٥، واللسان (صدق) بلفظ (طلاقك).

(٢) أورد الطبري في تفسيره: ١٥/ ٥٦٧: وذكر عن الحسن البصري أنه قرأ: «تلتقطه بعض السيارة» بالتاء. . . . وكأن الحسن ذهب بتأنيثه «بعض السيارة» أن فعل بعضها فعلها، والعرب تفعل ذلك في خبر كان عن مضاف إلى مؤنث يكون الخبرَ عن بعضه خبراً عن جميعه، كقول جرير:

أرى مر السنين أخذن مني      كما أخذ السرار من الهلال

(٣) البيت لذي الرمة في ديوانه ٦١٦، وكتاب سيبويه ١/ ٥٢، ٦٥، واللسان (سفه).

(٤) لم أهتد لقائل البيت فيما رجعت إليه من مظان.

تعالىٰ: «فظلت أعناقهم لها خاضعين»(١)، فاستغنى بخبر الأعناق عن خبر أصحابها(٢)، ويمكن أن يكون هذا من قوله تعالى: «والله ورسوله أحق أن يرضوه»(٣)، على إعادة الضمير إلى الله، وكون الأصل والله أحق أن يرضوه ورسوله، كذلك فاستغنى بخبر الله لأن إرضاء الله إرضاء رسوله، فعلى هذا يكون الأصل في الآية الكريمة إن رحمة الله وهو قريب من المحسنين، فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود، وسوّغ ذلك ظهور المعنى. فهذا منتهى ما حضرني من الكلام على قوله تعالى: «إن رحمة الله قريب من المحسنين».

---

(١) الشعراء ٢٦ الآية ٤ وتمامها: «إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين».

(٢) لعل الأولى أن تكون العبارة على النحو التالي: فاستغني عن خبر الأعناق بخبر أصحابها. وفي تفسير القرطبي ١٣/٨٩ ـ ٩٠: «فظلت أعناقهم، أي ستظل أعناقهم، لها خاضعين».

قال مجاهد: أعناقهم كبراؤهم. وقال النحاس: ومعروف في اللغة يقال: جاء في عنق من الناس أي رؤساء منهم. أبوزيد والأخفش: فـ«أعناقهم» جماعاتهم. يقال: جاءني عنق من الناس أي جماعة، وقيل: إنما أراد أصحاب الأعناق فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، وخاضعين وخاضعة هنا سواء.

وفي تفسير البيضاوي ٣/٧: «فظلت أعناقهم لها خاضعين» منقادين، وأصله فظلوا لها خاضعين، فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الخبر على أصله. وقال الشهاب: منقادين أي أن الخضوع هنا مجاز أو كناية عن الانقياد والإذعان. ولما كان (خاضعين) لجمع من يعقل، والأعناق ليست كذلك جعلها مقحمة، والأولى أن يقال إنها اكتسبت التذكير وصفات العقلاء من المضاف إليه. ولما كان الخضوع وضدّه يظهر في الرأس والعنق جعله محله لأنه يتراءى قبل التأمل أنه هو الخاضع دون صاحبه وقال العكبري في إعراب القرآن ١٦٦: قوله تعالى: «خاضعين» إنما جُمع جمع المذكر لأربعة أوجه: أحدها أن المراد بالأعناق عظماؤهم، والثاني أنه أراد أصحاب أعناقهم، والثالث أنه جمع عنق من الناس وهم الجماعة وليس المراد الرقاب، والرابع أنه لما أضاف الأعناق إلى المذكر وكانت متصلة بهم في الخلقة أجرى عليها حكمهم. وفي اللسان (عنق) الأعناق: الرؤساء. العنق: الجماعة الكثيرة من الناس.

وقال الشاعر يخاطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب:

أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتيتا
أن العراق وأهله عنق إليك فهيت هيتا

(٣) التوبة ٩ الآية ٦٢، وتمامها: «يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين».

# ابن هشام[1]

## ٧٠٨ - ٧٦١ هـ = ١٣٠٩ - ١٣٦٠ م

**نسبه ونشأته:**

يطلق هذا الاسم على عدد من العلماء، منهم ابنه محب الدين محمد، وحفيده أحمد بن عبدالرحمن، وأبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري البصري صاحب كتاب السيرة النبوية المعروفة بسيرة ابن هشام. وأما العالم الذي نعنيه فهو عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن هشام، جمال الدين، وقد ولد على أغلب الظن في القاهرة سنة ٧٠٨ هـ.

نشأ ابن هشام بين أسرة لم يعرف لها شأن يذكر عند أرباب التراجم والتاريخ، إلا أنه نشأ نشأة علمية فصار علماً يشار اليه، وعالماً يعتمد عليه ـ ولا أدل على هذا من قول ابن خلدون عنه: ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه.

وقد لزم ابن هشام عبدالملك بن عبدالعزيز المعروف بابن المرحّل، وتلا علي محمد بن محمد بن محمد بن نمير بن السرّاج الكاتب المجوّد، المقرىء، وسمع على أبي حيان أثير الدين محمد بن يوسف بن علي الأندلسي النحوي ديوان زهير بن أبي سلمى، وحضر دروس التاج التبريزي، وقرأ على التاج الفاكهي، وأخذ الحديث عن ابن جماعة، وتفقّه للشافعي ثم تحنبل فحفظ مختصر الخرقي أقل من أربعة أشهر، وكان ذلك قبل وفاته بخمس سنين.

---

(١) أوجزنا في الترجمة لشهرة المؤلف وبما يتناسب مع البحث. وللمزيد يرجع إلى: الدرر الكامنة ٢/٣٠٨، النجوم الزاهرة ١٠/٣٣٦، بغية الوعاة ٢/٦٨، مفتاح السعادة ١/١٥٩. روضات الجنات ٥/١٣٠، معجم المطبوعات ٢٧٣، ابن هشام: آثاره ومنهجه النحوي لعلي فودة نيل، معاني الحروف بين ابن هشام والرماني للدكتور عباس الترجمان.

كان ابن هشام قبلة عشاق العلم والأدب لنشاطه العلمي وعطائه الغزير في شتى العلوم والفنون، ولا سيما النحو والصرف. وكان من تلاميذه ابنه محب الدين محمد، ومحمد بن علي بن مسعود الطرابلسي، محب الدين، المعروف بابن الملاّح، ونور الدين علي بن أبي بكر بن أحمد البالسي المصري النحوي، وأبوالفضل محمد بن أحمد بن عبدالعزيز بن القاسم بن عبدالله النويري قاضي مكة وخطيبها، وجمال الدين الأميوطي، وابن الفرات، وابن الملقن، وغيرهم.

**مؤلفاته:**

لابن هشام مؤلفات كثيرة تنيف عن خمسة وثلاثين، منها:

مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، عمدة الطالب في تحقيق تعريف ابن الحاجب، شذور الذهب في معرفة كلام العرب، قطر الندى وبلّ الصدى، التذكرة، القواعد الكبرى، الجامع الكبير، الإعراب عن قواعد الإعراب، المباحث المرضيّة المتعلقة بمن الشرطية، موقد الاذهان وموقظ الوسنان، وغيرها. وله في دار الكتب الظاهرية بعض الرسائل المخطوطة، ومنها هذه الرسالة في قوله تعالى: «إن رحمة الله قريبٌ من المُحسنين».

**وفاته:**

توفي ـ رحمه الله ـ في القاهرة سنة ٧٦١ هـ ودفن بمقابر الصوفية.

**وصف المخطوطة:**

تقع الرسالة ضمن مجموع في الطب رقمه ٣١٤٢، وهو من وقف المدرسة العمرية، وأحد مخطوطات دار الكتب الظاهرية. ويتألف المجموع من كتاب ورسالتين هي:

١ ـ كتاب شرح الكليات للإمام فخر الدين الرازي.

٢ ـ رسالة لابن هشام حول قوله تعالى: «إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين».

٣ ـ رسالة لابن هشام بعنوان (فوح الشذا بمسألة كذا).

ويتألف المجموع من ٨٧ ورقة، طول الواحدة ٢٤ سم، وعرضها ١٧,٥ سم، وفي كل صفحة ٢٤ سطراً، وعرض الهامش الأيمن ٣ سم، والأيسر ١سم. وكتبت الرسالة بالنقش الأسود فقط، وبخط نسخ عادي مقروء، ولم يذكر اسم الناسخ وتاريخ النسخ، وحالة المخطوطة جيدة. وتقع الرسالة بين الورقة ٨١ب ـ ٨٣ب.

[٨١ ب] بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

قال الشيخ الإمام

العالم العلامة، شيخ النحاة والأدباء، وحيد دهره وفريد عصره، جمال الدين عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاري النحوي تغمده الله برحمته، وأسكنه بحبوحة جنته، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: «إنّ رحمة اللّه قريبٌ من المحسنين»(١). في هذه الآية الكريم سؤال مشهور، الأدب في إيراده وإيراد أمثاله أن يقال: ما الحكمة في كذا؟ تأدباً مع كتاب الله تعالى، فيقال: ما الحكمة في تذكير (قريب) مع أنه صفة مخبر بها عن المؤنث وهو الرحمة، مع أن الخبر الذي هذا شأنه يجب فيه التأنيث؟ تقول: هند كريمة وظريفة، ولا تقول كريم ولا ظريف. وإنما بيّنت كيفية السؤال لأنني وقفت على عبارة شنيعة لبعض المفسرين في تقرير السؤال أنكرتها. اللهم ألهمنا الأدب مع كلامك، ولا تردّنا على أعقابنا بأهوائنا، وحسن السؤال نصف العلم.

(١) الأعراف ٧، الآية ٥٦ وتمامها: «ولا تُفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً، إن رحمة الله قريب من المحسنين».

وقد أجاب العلماء، رحمهم الله تعالى، بأوجه، تتبعتها فوقفت منها على أربعة عشر وجهاً، منها قوي وضعيف، وكلٌ مأخوذ من قوله ومتروك، ونحن نسرد ذلك بحول الله تعالى وقوته، متتبعين له بالتصحيح أو[1] الإبطال بحسب ما يظهره الله تعالى، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

**الوجه الأول**: أن الرحمة في تقدير الزيادة، والعرب قد تزيد المضاف، قال الله سبحانه: «سبّح اسم ربك الأعلى»[2] أي سبّح ربك. ألا ترى أنه لا يقال في التسبيح: سبحان اسم ربي، إنما يقال: سبحان ربيّ، والتقدير إن الله قريب. فالإخبار في الحقيقة، إنما هو عن الاسم الأعظم، إن الله قريب من المحسنين. قلت: وهذا الوجه لا يصح عند علماء البصرة، رحمهم الله تعالى، لأن الأسماء لا تزاد في رأيهم، وإنما تزاد الحروف. وأما سبح اسم ربك الأعلى فلا يدل على ما قالوه لاحتمال أن يكون المعنيّ من أسمائه مما لا يليق بها معنى، فلا يجري عليه أسماء لا تليق بكماله، أولا تجري عليه أسماء غير مأذون فيها شرعاً، وهذا أحد التفسيرين في الآية الكريمة. وإذا أمكن الحمل على محمل صحيح لا زيادة فيه وجب الإذعان له لأن الأصل عدم الزيادة.

° ° °

(١) في الأصل: بالتصحيح والإبطال، ولعل سقوط الهمزة من سهو الناسخ.

(٢) الأعلى ٨٧، الآية ١.

الثاني: أن ذلك على حذف مضاف، أي أنّ مكان رحمة الله قريب، فالإخبار في الحقيقة إنما هو عن المكان، ونظيره قوله، صلى الله عليه وسلم، مشيراً إلى الذهب والفضة: «إن هذين حرامٌ»(١)، وكذلك قول حسان ابن ثابت، رضي الله عنه:

يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفّق بالرحيق السلسل(٢)

أي ماء بردى، فلهذا قال (يصفّق) بالتذكير مع أن (بردى) مؤنثة(٣)، انتهى. وهذا المضاف الذي قدّره في غاية البعد، والأصل عدم الحذف، والمعنى مع ترك هذا المضاف أحسن منه مع وجوده.

• • •

(١) الحديث على النحو التالي: «إن هذين حرامٌ على ذكور أمّتي» في سنن أبي داوود ٤/ ٣٣٠ ورقم ٤٠٥٧ في كتاب اللباس، وفي سنن النسائي ٨/ ١٦٠ في باب تحريم الذهب على الرجال. وفي سنن الترمذي ٦/ ٤٣ ورقم ١٧٢٠: «حُرِم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأُحل لإناثهم». وفي سنن ابن ماجة ٢/ ١١٨٩ ورقم ٣٥٩٥ في باب لبس الحرير والذهب للنساء: «إن هذين حرام على ذكور أمتي حلٌ لإناثهم».

(٢) ديوان حسان ١٢٢، وأما في الخزانة ٢/ ٢٤١. ومنتخبات في أخبار اليمن ٦ (كأساً يصفّق) وفي طبقات فحول الشعراء ٢١٨ (خمراً يصفّق).

وقال الزمخشري في شرح المفصل ٢/ ٢٥ في مبحث حذف المضاف: وكما أعطوا الثابت حق المحذوف في الإعراب فقد أعطوه حقه في غيره. قال حسان:

يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفّق بالرحيق السلسل

فذكّر الضمير في يصفّق حيث أراد ماء بردى.

(٣) في شرح ابن عقيل ٤/ ٩٥ في باب التأنيث: فأما المقصورة (أي ألف التأنيث) فلها أوزان مشهورة، وأوزان نادرة. فمن المشهورة.....، ومنها فعلى اسماً، كبردى لنهر بدمشق.

الثالث: أنه على حذف الموصوف [١٨٢أ] أي أن رحمة الله شيء قريب(١) كما قال الشاعر:

قامت تبكيه على قبره | من لي من بعدك يا عامر(٢)
تركتني في الدار ذا غربة | قد ذلّ مَن ليس له ناصر

أي تركتني في الدار شخصاً ذا غربة، وعلى ذلك قول سيبويه: قولهم امرأة حائض أي شخص ذو حيض، وقول الشاعر أيضا:

فلو أنك في يوم الرّخاء سألتني | طلاقك لم أبخل وأنت صديق(٣)

أي وأنت شخص صديق. وهذا القول في الضعف كالذي قبله، بل هو أشد منه ضعفاً، لأن تذكير صفة المؤنث باعتبار إجرائها على موصوف مذكر محذوف شاذ، منزّه كتاب الله، سبحانه وتعالى(٤) عنه، ثم الأصل عدم الخوف(٥).

الخامس: أن العرب تعطي المضاف حكم المضاف إليه في التذكير والتأنيث إذا صح الاستغناء عنه. فمثال إعطائه حكمه في التأنيث

---

(١) قال الزمخشري بهذا التأويل في الكشاف ٢/ ٨٧ في شرحه الآية الكريمة: وانما ذكّر (قريب) على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة موصوف محذوف، أي شيء قريب.

(٢) البيتان دون عزو في البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث ٦٥، وفي سمط اللآلي ١/ ١٧٤ واللسان (عمر). وقال ابن الأنباري إن الأعرابية قالت ذا غربة ولم تقل ذات غربة لأن المرأة في المعنى انسان. والبيت الأول في العقد الفريد ٣/ ٢٥٩:

أقمت أبكيه على قبره | في الدار لي وحشة يا عامر

وورد الأول منسوباً للأعشى في المحكم ٢/ ١٠٩، وليس في ديوانه.

(٣) البيت في اللسان (صدق) دون عزو، وكذلك في شرح شواهد المغني ١٠٥، وفي شرح ابن عقيل ١/ ٣٨٤ برقم ١٠٥.

(٤) في تفسير الإمام البيضاوي ١٥٨: «وتذكير قريب لأن الرحمة بمعنى الرحم، أو لأنه صفة محذوف، أي أمر قريب».

(٥) في المخطوطة قوس صغيرة نحو اليسار نوحي بأن الناسخ قد توهم أنه سها عن الوجه الرابع، وقد أشرنا لذلك في المقدمة.

قولهم: قُطعت بعض أصابعه، فأعطوا البعض حكم الجمع المضاف إليه في التأنيث، ومنه القراءة الشاذة «تلتقطه بعض السيّارة»(١)، ومثال إعطائه حكمه في التذكير قوله:

إنارة العقل مكسوفٌ بطوع هوىً(٢)،

ومنه الآية الكريمة. انتهى. وهذا الوجه قال فيه أبوعلي الفارسي في تعاليقه على كتاب سيبويه، رحمهما الله تعالى، ما نصّه هذا التقدير. والتأوّل في القرآن يعد كالفاسد، إنما يجوز هذا في ضرورة الشعر(٣).

السادس: أن فعيلاً بمعنى مفعول، فيستوي فيه المذكر والمؤنث كرجل جريح وامرأة جريحة، نقل هذا الوجه أبوالبقاء في إعرابه(٤)،

---

(١) يوسف ١٢ الآية ١٠ وبزمانها «قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين». في الخصائص ٢/ ٤١١ ـ ٤٣٥ في فصل (الحمل على المعنى): اعلم أن هذا الشرج غور من العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح قد ورد به القرآن وفصيح الكلام منثورا ومنظوما كتأنيث المذكر وتذكير المؤنث... وأما تأنيث المذكر فقراءة من قرأ «تلتقطه بعض السيّارة»، وكقولهم: ما جاءت حاجتك، وكقولهم ذهبت بعض أصابعه، أنّث ذلك لما كان بعض السيارة سيارة في المعنى، وبعض الأصابع إصبعا، ولّما كانت (ما) هي الحاجة في المعنى. وفي تفسير الطبري ١٢/ ٥٦٧: وذكر عن الحسن البصري أنه قرأ «تلتقطه بعض السيارة» بالتا.. وكأن الحسن ذهب في تأنيثه «بعض السيارة» أن فعل بعضها فعلُها، والعرب تفعل ذلك في خبر كان عن مضاف إلى مؤنث يكون الخبر عَن بعضه خبرا عن جميعه كقول جرير:

أرى مرّ السنين أخذن مني كما أخذ السرارُ من الهلال

(٢) البيت دون عزو في شرح شواهد المغني ٨٨١، وتمامه: وعقلٌ عاصي الهوى يزداد تنويرا.

(٣) قال الإمام محمود شكري الألوسي في (الضرائر) ١٣٠ تحت (تنبيه): ما ذكرنا من ان تذكير المؤنث وتأنيث المذكر من الضرائر موافق لما ذهب إليه الشيخ أبوسعيد في كتابه (لسان العرب في فنون الأدب) ومن وافقه على ذلك. وجمهور النحاة على خلافه فإنهم ذهبوا إلى أن المضاف يكتسب من المضاف إليه أموراً كثيرة منها التذكير والتأنيث... وادّعوا ورود ذلك في الكلام الفصيح نحو: «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً» ونحو «تلتقطه بعض السيارة».

(٤) في إعراب القرآن ١/ ٢٧٦: «قريب» إنما لم تؤنث... وقيل هو فعيل بمعنى مفعول، كما قالوا: لحية دهين. وكفٌ خضيب. وكذلك قال الزمخشري في الكشاف ٢/ ٨٧ «إن رحمة الله قريب»... أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول، كما شبه ذاك به فقيل: قتلاء وأسراء.

وأقرّ قائله عليه وهو خطأ فاحش لأن فعيلاً هنا ليس بمعنى مفعول.

السابع: أن فعيلاً بمعنى فاعل قد تشبّه بفعيل بمعنى مفعول فيمنع من التاء في المؤنث، كما قد يشبهون فعيلا بمعنى مفعول بمعنى فاعل فيخففون التاء، فالأول كقوله سبحانه وتعالى: «قال من يحيي العظام وهي رميم»(١) ومنه «إن رحمة الله قريبٌ»، والثاني كقولهم: خصلة ذميمة، وصفة حميدة حملاً على قوله قبيحة وجميلة.

الثامن: أن العرب قد تخبر عن المضاف إليه، ويتركون المضاف كقوله سبحانه «فظلّت أعناقهم لها خاضعين»(٢)، فخاضعين خبر عن الضمير المضاف إليه الأعناق، لا عن الأعناق. ألا ترى أنك لو قلت: الأعناق خاضعون، لم يجز لأن جمع المذكر السالم إنما يكون من صفات العقلاء، لا تقول أيد طويلون، ولا كلاب نابحون، انتهى. ولعل هذا القول يرجع الى القول بالزيادة، وقد بيّنا ما عليه. وقد قيل إن المراد بالأعناق في هذه الآية الكريمة الرؤساء، وقيل الجماعة، وإنه يقال: جاء زيد في عنق من الناس، أي في جماعة(٣).

التاسع: الرحمة والرحم متقاربان لفظاً، وهذا واضح، ومعنى بدليل النقل عن أئمة اللغة، فأعطي أحدهما حكم الآخر. وهذا القول ليس بشيء لأن الوعظ والموعظة والعظة تتقارب أيضاً فينبغي أن يجيز هذا القائل أن [٨٢ب] يقال موعظة نافع، وعظة حسن، وكذلك الذّكر والذكرى، فينبغي أن يقال ذكرى نافع كما يقال ذكر نافع.

---

(١) يس ٣٦ الآية ٧٨ وتمامها: «وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم».

(٢) الشعراء ٢٦، الآية ٤ وتمامها: «إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين».

(٣) قال العكبري في إعراب القرآن ١٦٦: قوله تعالى: خاضعين: إنما جُمع المذكر لأربعة أوجه، أحدها أن المراد بالأعناق عظماؤهم، والثاني أنه أراد أصحاب أعناقهم، والثالث أنه جمع عنق من الناس وهم الجماعة وليس المراد الرقاب، والرابع أنه لما أضاف الأعناق إلى المذكر كانت متصلة بهم في الخلقة أجرى عليها حكمهم.

العاشر: أن فعيلاً هنا بمعنى النسب، فقريب معناه ذات قرب، كما يقول الخليل في حائض: إنه بمعنى ذات حيض(١)، وهذا أيضا باطل لأن استعمال الصفات على معنى النسب مقصور على أوزان خاصة، وهي فعال وفعل وفاعل.

الحادي عشر: أن فعيلاً مطلقاً يشترك فيه المذكر والمؤنث، حكى ذلك ابن مالك عن بعض من عاصره، وهذا القول من أفسد ما قيل لأنه خلاف الواقع في كلام العرب، يقولون: امرأة ظريفة، وامرأة عليمة ورحيمة، ولا يجوز التذكير في شيء من ذلك، ولهذا قال أبوعثمان المازني في قوله سبحانه: «وما كانت أمك بغيّا»(٢) إنه فعول بغوي، ثم قلبت الواو ياء، والضمة كسرة، وأدغمت الياء في الياء. فأما قول الشاعر:

فتور القيام قطيع الكلام     تفترُّ عن ذي غروب حصرْ(٣)

فالجواب عنه من أوجه: أحدهما أنه نادر، والثاني أن أصله قطيعة ثم حذفت التاء للإضافة كقوله سبحانه: «وإقام الصلاة»(٤)، وأصله وإقامة الصلاة والإضافة مجوزة لحذف التاء كما توجب حذف النون والتنوين، نص على ذلك غير واحد من القراء. الثالث أنه جاز لمناسبة قوله فتور، ألا ترى أن فتوراً فعول، وفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث.

---

(١) ذكر العكبري في إعراب القرآن ٢٧٦: قوله تعالى «قريب» إنما لم تؤنث لأنه. . . . وقيل هو على النسب أي ذات قرب، كما يقال امرأة طالق.

(٢) مريم ٢٤ الآية ٢٨ وتمامها: «يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً».

(٣) البيت لامرىء القيس في ديوانه ١٥٧.
فتور القيام: ليست بوثابة في قيامها. قطيع الكلام: أي نزرة الكلام قليلة.
الغروب: حدّة الأسنان. خصر: بارد أي تبتسم ولا تضحك ضحكاً.

(٢١) النور ٢٤ الآية ٣٧، وتمام الآية: «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار».

الثاني عشر: أنهم يقولون فلانة قريب من كذا، يفرّقون بذلك بين قريب من المعنى النسب، وقريب من قرب المسافة. فإذا قالوا هي قريبة فلان فمعناه قرب المسافة، وإذا قالوا قريب فمعناه من القرابة، وهذا القول عندي باطل لأنه مبنيّ على أن يقال في القرب النسبي: فلان قريب، وقد نصّ الناس على أن ذلك خطأ، وأن الصواب بأن يقال: فلان ذو قرابتي(١) كما قال:

يبكي القريب غريباً ليس يعرفه وذو قرابته في الحي مسرور(٢)

الثالث عشر: أن هذا من تأويل من يقدّر لطف الله قريب، ومن مجيء ذلك في العربية قول الشاعر:

---

(١) في الصحاح (قرب) وقوله تعالى: «إن رحمة الله قريب» ولم يقل قريبة لأنه أراد بالرحمة الإحسان، ولأن ما لا يكون تأنيثه حقيقاً جاز تذكيره. وقال الفراء: إذا كان القريب في معنى المسافة يذكر ويؤنث، وإذا كان في معنى النسب يؤنث بلا اختلاف بينهم، تقول هذه المرأة قريبتي أي ذات قرابتي. وفي اللسان (قرب) قال تعالى: «وما يُدريك لعل الساعة قريب»، ذكّر قريباً لأن تأنيث الساعة غير حقيقي. وفي المصباح المنير (قرب) قال أبوعمرو بن العلاء: للقريب في اللغة معنيان: أحدهما قريب قرب فيستوي فيه المذكر والمؤنث، يقال زيد قريب منك وهند قريب منك، لأنه من قرب المكان والمسافة، فكأنه قيل هند موضعها قريب، ومنه «إن رحمة الله قريب من المحسنين»، والثاني قريب قرابة فيقال هند قريبة وهما قريبتان. وقال الخليل: القريب والبعيد يستوي فيهما المذكر والمؤنث والجمع، وقال ابن الأنباري: قريب مذكر موحّد، تقول: هند قريب والهندات قريب لأن المعنى الهندات مكان قريب. وفي تفسير الطبري ١٢/ ٤٨٧ «إن رحمة الله قريب من المحسنين». . . . ذكّر قوله «قريب» وهو من غير الرحمة، والرحمة مؤنثة لأنه أريد به القرب في الوقت لا في النسب. والأوقات بذلك المعنى إذا وقعت أخباراً للأسماء أجرتها العرب مجرى الحال فوحدتها مع الواحد والاثنين والجميع، وذكّرتها مع المؤنث فقال: كرامة الله بعيد من فلان وهي قريب من فلان. وفي المخصص ١٦/ ١٦٠ يقال: هند قريب مني، وكذلك الاثنان والجمع فيوحّد ويذكر لأن قولك هي قريب مني مكانها قريب مني، وبعيد كقريب في الإفراد والتذكير. وقد يجوز قريبة وبعيدة إذا بنيتهما على الفعل، وإذا أردت قرابة النسب ولم ترد قرب المكان ذكّرت مع المذكر وأنثت مع المؤنث.

(٢) البيت في اللسان (دهر) مع ثلاثة أبيات لعثير بن لبيد العذري، وقيل لحريث بن جبلة العذري «يبكي عليه غريب. . . .».

أرى رجلاً منهم أسيفاً كأنّما     يضمُّ إلى كشحيه كفاً مخضّبا[1]

فأوّل الكف على معنى العضو، وهذا الوجه باطل لأنه إنما يقع هذا النحو في الشعر، وقد قدّمنا أنه لا يقال موعظة حسن، إنما يقال كما قال سبحانه «الموعظة الحسنة»[2]، هذا مع أن الموعظة بمنزلة الوعظ في المعنى، وهذا يقاربه في اللفظ، وأما البيت الذي أنشدوهُ فنصّ النحاة على أنه ضرورة شعر، وما هذه سبيله لا يخرّج عليه كتاب الله تعالى.

الرابع عشر: أن المراد بالرحمة هنا المطر[3]، والمطر مذكر، وهذا القول يؤيده عندي ما يتلوه من قوله سبحانه «وهو الذي يُرسلُ بُشراً بين يدي رحمته»[4]. وهذه الرحمة هي المطر، فهذا تأنيث معنوي، إلا أنه قد يعترض عليه من أوجه، أحدها أن يقال لو كانت الرحمة الثانية هي الرحمة [٨٣أ] الأولى لم تذكر ظاهرة لأن هذا موضع الضمير. فإن قيل إن ذلك ليس بواجب قلت نعم، ولكنه يقتضي الظاهر، وبهذا التقدير يصحّ الترجيح. الثاني أنه إذا أمكن الحمل على العام وهو مطلق الرحمة لا يعدل إلى الخاص. لا يقال إذا لم يكن للتذكير وجه إلا الحمل على الخاص، كالتذكير هنا لأنا نقول هذا، إنما يقال إذا لم يكن

---

(١) البيت للأعشى في ديوانه ٨٩.

(٢) النحل ١٦ الآية ١٢٦ وتمامها: «ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين.

(٣) قال الأخفش الأوسط في معاني القرآن ٢/ ٣٠٠: «إن رحمة الله قريب من المحسنين»، فذكّر قريب وهي صفة الرحمة، وذلك كقول العرب ريح خريق وملحفة جديد وشاة سديس، وإن شئت قلت تفسير الرحمة ها هنا المطر ونحوه فلذلك ذكّر كما قال: «وإن كان طائفة منكم آمنوا»، فذكّر لأنه أراد الناس. وقال بهذا التأويل الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٨٧) وفي إعراب القرآن للعكبري ٢٧٦: .... قوله تعالى: «قريب» إنما لم تؤنث لأنه أراد المطر.
وفي الخصائص ٢/ ٤٣٥: وقالوا في قوله سبحانه: «إن رحمة الله قريب من المحسنين» الأعراف/ ٥٦ إنه أراد بالرحمة هنا المطر.

(٤) الأعراف ٧ الآية ٥٧ وتمامها: «وهو الذي يُرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سُقناه لبلد ميّت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كلّ الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون».

للتذكير وجه إلا الحمل على إرادة المطر كما ذكرت، وليس الأمر هنا كذلك. الثالث أن الرحمة هي المطر لا تختص بالمحسنين لأن الله تعالى تكفّل برزق العباد طائعهم وعاصيهم. وأما الرحمة التي هي الغفران والتجاوز فإنها تختص في خطاب الشرع بالمحسنين المطيعين وإن كانت غير موقوفة عليهم لا شرعاً ولا عقلاً عند أهل الحق، إلا أن ذلك يذكر على سبيل التنشيط للمطيعين، والتخويف للعاصين، وهذا فيه لطف وقلما ينتبه له إلا الأفراد. ومن ثم زلت أقدام المعتزلة، فإنهم يجدون في خطاب الشارع ما يقتضي بظاهره تخصيص الغفران والتجاوز والإحسان بالمطيعين فينفون رحمة الله عن أصحاب العصيان فيحجّرون واسعا، إنهم يقسمون رحمة ربك، والله يختص برحمته من يشاء، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. هذا الذي فطرنا الله عليه من حسن الاعتقاد، وإياه نسأل الوفاة عليه بمنّه وكرمه. وهذا الوجه يمكن الجواب عنه بأنه كما جاز تخصيص الخطاب بالغفران بالمحسنين على سبيل الترغيب، كذلك يجوز تخصيص المطر الذي هو سبب الأرزاق بهم ترغيباً في الإحسان. الرابع أنك لو قلت إن مطر الله قريب لوجدت هذه الإضافة تمجها الأسماع وتنبو عنها الطباع بخلاف إن رحمة الله فدلّ على أنه ليس بمنزلته في المعنى، وهذا الوجه يمكن الجواب عنه بأمرين، أحدهما أن يقال لا ندعي أن الرحمة بمعنى المطر بل إن مجموع رحمة الله استعمل مراداً به المطر، والثاني أن المطر معلوم أنه من جهة الله سبحانه، فإضافة إليه كأنها غير مفيدة بخلاف قولك رحمة الله، فإن الرحمة عامة، فإن للعباد رحمة خلقها الله سبحانه يتراحمون بها بينهم، فإذا أضيفت الرحمة إليه سبحانه أضاف أنه ليس المقصود الرحمة المضافة إلى العباد، ونظيره أنك تقول كلام الله، لأن الكلام عام، ولا تقول قرآن الله لأنه خاص بكلام الله سبحانه. والإنصاف أن يقال في هذا القول إنه لا يخلو أمر قائله من أمرين، وذلك لأنه إما أن يدعي أن الرحمة لفظ مشترك بين المطر وغيره، وأنه موضوع بالأصالة للمطر كما أنه موضوع لغيره بالأصالة، أو يدعي أنه

موضوع لغير المطر بطريق الأصالة ثم يتجوّز به عن الرحمة، فإن ادُّعي الأول فقد يمتنع ذلك بأن الذهن إنما يتبادر عند إطلاق الرحمة إلى غير الر، والمشترك إنما حقه أن يكون عل الاحتمال بالبيّنة إلى معنييه أو معانيه لا يكون أحدهما أولى من غيره، وإنما يتعينّ المراد بالقرينة، ثم إنّا لا نجد أهل اللغة [٨٣ب] يتكلمون على الرحمة يقولون: ومن معانيها المطر، فلو كانت موضوعة له لذكروها كما يذكرون معاني المشترك، وإن ادّعي الثاني فليزمه أن يجيز في فصيح الكلام أرض مخضرّة، وسماء مرتفع، ورحمة واسع، وتقول: أردت بالأرض المكان، .وبالسماء السقف، وبالرحمة الإحسان، وهذا ما لا يقول به أحد من النحويين، وإنما يقع ذلك في الشعر(١) أو في نادر الكلام، وما هذه سبيله لا يُخرّج عليه كتاب الله تعالى الذي نزل بأفصح اللغات، وأرجح العبارات، وألطف الإشارات. فإن قلت فإني أجد في كلام كثير من المفسرين رضي الله عنهم تخريج آيات من التنزيل على مثل هذا كما قالوا في قوله سبحانه «وإذا حضرا القسمة»(٢) ثم قال تعالى «فارزقوهم منه» فلو جاز حملاً على معنى القسمة وهو المقسوم قلت: الذي عليه أهل التحقيق أن الضمير عائد على (ما) من قوله سبحانه «مما ترك الوالدان» أي فارزقوهم من الذي تركه الوالدان. على أن القسم والقسمة واقعان في العربية على المقسوم وقوعاً كثيراً، أي

---

(١) قال تعالى: «السماء منفطر به كان وعده مفعولا»، المزمل ٧٣ الآية ١٨. وفي فتح الرحمن في تفسير هذه الآية: السماء منفطر به، أي بذلك اليوم لشدته وإنما لم يؤنث صفة السماء مع أنها مؤنثة لأنها بمعنى السقف، تقول: هذا سماء البيت أي سقفه. قال تعالى: «وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً».

(٢) النساء ٤ الأيتان ٧، ٨ وتمامها: «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلّ منه أو كثر نصيباً مفروضاً، وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً».

المحقق: أضاف الزمخشري في الكشاف ٢/ ٨٧ تعليلاً آخر لتذكير لفظة (قريب) فقال: أو على أنه بزنة المصدر الذي هو النقيض والضغيب (النقيض: صوت العقاب. الضغيب: صوت الأرنب).

مقسوم بينهم. واعلم أنه لا يعد في أن يقال إن التذكير في قوله سبحانه قريب لمجموع أمور من الأمور التي قدّمناها فتقول لمّا كان المضاف يكتسب من المضاف إليه التذكير، وهي مقاربة المخرج في اللفظ، وكان الرحمة هنا بمعنى المطر، وكان قريب على صيغة فعيل، وفعيل الذي بمعنى فاعل قد يحمل على فعيل بمعنى مفعول جاز التذكير، وليس هذا نقضاً لما قدّمناه لأنه لا يلزم من انتفاء اعتبار شيء من الأمور مستقلاً انتفاء اعتباره من غيره.

هذا آخر ما تحرر لي في هذه الآية الشريفة، والله تعالى أعلم بغيبه، والحمد لله وحده، وصلواته على نبينا محمد وآله وصحبه وسلّم.

# فهرس المصادر


١ ـ إصلاح المنطق ـ يعقوب بن السكيت ـ تح أحمد شاكر وعبدالسلام هارون ـ ط٢ ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٥٩م.

٢ ـ ديوان الأعشى الكبير ـ شرح د. م. محمد حسين ـ المطبعة النموذجية ـ القاهرة ـ ١٩٥٠م.

٣ ـ ديوان امرىء القيس ـ تح. محمد أبوالفضل إبراهيم ـ دار المعارف بمصر ـ ط٤ ـ ١٩٨٤م.

٤ـ إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن ـ أبوالبقاء العكبري ـ تح. إبراهيم عطوة عوض ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٩٦١م.

٥ ـ البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث ـ أبوالبركات ابن الأنباري ـ تح. د. رمضان عبدالتواب ـ القاهرة ـ ١٩٧٠م.

٦ ـ تفسير البيضاوي ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٣٤٤م.

٧ ـ تفسير القرطبي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٨ ـ حاشية الشهاب في تفسير البيضاوي ـ دار صادر ـ بيروت.

٩ ـ ديوان حسان بن ثابت ـ تح. د. سيد حنفي حسنين. . مراجعة كامل الصيرفي ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٤م.

١٠ ـ الخصائص ـ عثمان بن جنّي ـ تح. محمد علي النجار ـ دار الكتب المصرية ـ ١٩٥٦م.

١١ ـ ديوان ذي الرمة ـ تح. د. عبدالقدوس أبوصالح ـ مطبوعات مجمع اللغة بدمشق ـ ١٩٧٢م.

١٢ ـ سنن الترمذي ـ تعليق عبيد عزت الدعاس. . مطبعة الفجر الحديثة ـ حمص ـ ١٩٦٨م.

١٣ ـ سنن أبي داوود ـ نشر محمد علي السيد ـ حمص ـ ١٩٦٩م.

١٤ ـ سنن ابن ماجة ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٥٣م.

١٥ ـ شرح شواهد المغني ـ عبدالرحمن السيوطي ـ تصحيح محمد محمود التركزي ـ لجنة التراث العربي.

١٦ ـ شرح ابن عقيل ـ المكتبة التجارية ـ مصر ـ ١٩٦٧م.

١٧ ـ شرح المفصل ـ موفق الدين ابن يعيش ـ تصحيح جماعة من العلماء ـ المطبعة المنيرية.
١٨ ـ الصبح المنير في شعر أبي بصير ـ مطبعة آدولف هلز هوسن ـ بيانة ـ ١٩٢٧م.
١٩ ـ الصحاح ـ إسماعيل بن حماد الجوهري ـ تح. أحمد عبدالغفور عطار ـ دار الكتاب العربي ـ مصر ـ ١٩٥٦م.
٢٠ ـ الضرائر ـ محمود شكري الآلوسي ـ شرح محمد بهجت الأثري ـ المطبعة السلفية ـ مصر ـ ١٣٤١هـ.
٢١ ـ طبقات فحول الشعراء ـ محمد بن سلام الجمحي ـ شرح محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ ١٩٧٤م.
٢٢ ـ العقد الفريد ـ أحمد بن عبدربه ـ تح. أحمد أمين ورفاقه ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ مصر ـ ١٩٤٨م.
٢٣ ـ فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ـ أبويحيى زكريا الأنصاري ـ تح. محمد علي الصابوني ـ عالم الكتب ـ ط١ ـ بيروت ـ ١٩٨٥م.
٢٤ ـ القرآن الكريم.
٢٥ ـ الكتاب ـ عمرو بن عثمان بن قنبر ـ عالم الكتب ببيروت ـ مطابع دار القلم ـ القاهرة.
٢٦ ـ الكشاف ـ محمود بن عمر الزمخشري ـ المطبعة البهية ـ مصر ـ ١٣٤٣هـ.
٢٧ ـ لسان العرب ـ محمد بن مكرم بن منظور ـ دار صادر ـ بيروت.
٢٨ ـ المحكم ـ علي بن إسماعيل بن سيده ـ تح. د. حسين نصار ـ ط١ ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٩٥٨م.
٢٩ ـ المذكر والمؤنث ـ أبوزكريا يحيى بن زياد الفراء ـ تعليق مصطفى الزرقا ـ ط١ ـ حلب ـ ١٣٤٥هـ.
٣٠ ـ معاني القرآن ـ الأخفش الأوسط ـ تح. د. فائز فارس ـ الشركة الكويتية لصناعة الدفاتر ـ ط٢ ١٩٨١م.
٣١ ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ـ أحمد بن محمد الفيومي ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٣٤٢هـ.
٣٢ ـ منتخبات في أخبار اليمن ـ نشوان بن سعيد الحميري ـ تصحيح عظيم الدين أحمد ـ مطبعة بريل ـ ليدن ـ ١٩١٦م.
٣٣ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ أحمد بن محمد المقري التلمساني ـ دار الفكر ـ ط١ ـ ١٩٨٦م.